بين اللغة والعلوم الأخرى ينبغى أن يراعى فى التربية والتثقيف . فكما لا يجدى تلقين القوانين الدينية والتعاليم الشرعية فى تكوين الضمير وتربية العاطفة الدينية . وعصمة الرجل عن الزلل فى الحياة ، كذلك لا تغنى القواعد النحوية شيئاً فى عصمة اللسان وتصحيح الكلام

وبعد فلا بد أن نكرر القول بأنا لا نريد الغض من مكانة النحو وخطورة درسه فى اللغة العربيـــة ، بل إنا لنراه — مستيقنين — فى المكان الأول منها ، باعتباره المبين لنظامها ، والكاشف عن قوانين التركيب فيها ، وقد خطا النحاة منذ أول العهد بالنحو ، خطوات موفقة فى هذه السبيل ، رغم ما غلب عليها فى العهود الأخيرة من الشطط والتكلف والبعد عن روح اللغة . وقد خطت الجامعة فى العصر الحديث — فى دراسة النحو — خطوة جديدة مسددة بعيدة ، نرجو أن تكشف عنها الأيام القريبة المقبلة إن شاء الله تعالى .

محمد طه الحاجرى

فى النقـــد الأدبى

للأستاذ اسماعيل مظهر

العصر الذى نعيش فيه عصر قوامه النقــد . حتى لقد قال « إدورد كيرد » وهو من الفلاسـفة المعاصرين فى أول كتابه عن فلسفة كَنْت : إن النقد هو الذى هدّ العروش المقدسة ، ومنها عرش الدين قائماً من فوق العقيدة ، وعرش القانون قائماً من فوق السلطان والجبروت . فاذا عنى أعلام كتابنا بالنقد ، فانما يعنون بشيء قد تغلغل فى صميم الحياة الحديثة ، ونفذ إلى أبعد غور من أغوار الأشياء الانسانية . وما حفزهم إلى الكلام فى النقد ، وفى النقد الأدبى على الأخص ، إلا شعورهم — وقد ركدت حركة النقد — بأن فى الجو الأدبى فراغاً جعلهم يستوحشون من الحياة التى يحيونها ، وجعلهم يفتقدون شيئاً آنسوا فيه حياة ألفوها . على أنى لحظت فى نزعة الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع شيئاً أو أشياء ، على كبير علاقتها بالنقد الأدبى ، وعلى عظيم خطرها ، لم يعرض لها أعلام كتابنا ولو باشارة ، ومن طرف خفى ، كأن الكلام فى هذه الأشياء عسير على النقد أو هى من الأشياء التى يجب أن تخرج من مجال النقد ، وكانت هذه الظاهرة فيما كتبوا بينة جلية ، حتى لقد خيل إلىّ أن ما كتب فى النقد جدير بأن ينقد ، وخليق بأن يحلل تحليلاً لا هوادة فيه

سـاءلت نفسى : أناحية النقد الأدبى وحدها هى الجديرة بالتقدير والوزن ، أم إن ناحية النقد العلمى والفلسفى لها من المكانة والشرف ما يجعلها خليقة بأن تساوى النقد الأدبى قيمة ووزناً ؟ ولمَ نخص النقد الأدبى وحده بقسط من العنـاية يستوفى كل جهودنا العقلية ، ولا ننظر ولو التفاتاً وبقليل من الاكتراث إلى النقد العلمى والفلسفى ؟ ألأنّ الأدباء كثيرون ، والعلماء والفلاسفة قليلون ؟ كلا وإنما السبب أن عقليتنا لم تتكون بعد التكون العلمى ولا التكون الفلسفى . وهذا التكون سابقة ينبغى أن تسبق فى الحياة العقلية ظاهرة النقد ، فى مجال ما من مجالات الحياة الثقافية . ذلك بأن وجود العلماء لا يكفى فى تكوين العقليـة العلمية ، ولا وجود الفلاسفة بكاف لتكوين العقلية الفلسفية

ثم ساءلت نفسى : أللنقد موانع ؟ أيمنعنا من النقد عوامل خلقية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل تقليدية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل اقتصادية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل سياسية ؟ أيمنعنا من النقد عوامل نفسية ؟ وهل يمكن أن يفلت النقد من أثر هذه العوامل ؟ وبعد أن أطلت النظر فى كل سؤال من هـذه الأسئلة ، بل إن شئت فقل فى كل معضلة من هذه المعضلات ، حكمت بأن هذه الموانع كائنة ، وأن بعضها أقوى أثراً من بعض ، وأن الناقد لن يفلت من دائرتها ، أو يخرج من أقطار هذه الأرض منبوذاً مدحوراً

وبعد هذا وذاك هل وضعنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله ، وتشيد من فوقها أركانه ؟ ألنا فى النقد مذاهب مقررة ينتحيها الناقدون ؟ وهل لنا فى النقد قواعد تحدد للنقد حدوده ، وترسم تخومه ، وتعين اصطلاحاته ، شأن كل الأشياء العلمية والأدبية التى لها أثر فى تطور العقليات والمعقولات ؟

كلا . ليس لنا فى النقد مذاهب ، وإنما اتبعنا إلى الآن فى النقد طريقة ميزانها الذوق والشعور ، وهى طريقة إن مال ميزانها نحو اليمين قيد شعرة كانت إفراطاً فى المدح والتقريظ ، وإن مالت نحو الشمال شعرة كانت تفريطاً فى كل ما يقتضى النقد من حكمة فى تقويم الآثار الأدبية بميزان صادق الدلالة على قيمة ما فى كفتيه . وجملة الأمر أننا ذهبنا فى النقد المذهب التقديرى ، ولم ننزع إلى المذهب التقريرى . ذلك بأن المذهب التقديرى مذهب سهل المأخذ ، لين المنحى ، مطواع للأهواء ، يسع الأثر الذى تمليه

الصداقة على شعور الناقد ، ويسع الأثر الذى تمليه العداوة والبغضاء على انفعالاته . وهو فوق كل هذا مذهب يُدانى لا ضوابط له ولا قواعد ، ولا نظريات ولا حقائق ؛ وبالأحرى نقول إننا مضينا ننقد حتى الآن ورائدنا فى النقد الأثر الذى تتركه فى أنفسنا مختلف المنتوجات الأدبية ، بما فيها من علاقات ذاتية وميول وعواطف وأخيلة وأحاسيس ؛ وعلى الضد من هذا كله مذهب النقد التقريرى القائم على نظريات أو حقائق لها حدود مضبوطة ومصطلحات معينة ونماذج يمكن أن ينسج على منوالها ؛ ناهيك بأن مذهب النقد التقريرى قد تكون له فى بعض الأحيان فكرة عامة شاملة ترمى الى غاية معينة . فانك إن نظرت مثلاً فى محاورات سقراط التى أثبتها تلاميذه فى كتبهم ، تبينت من خلالها فكرة جامعة وغاية أخيرة ترمى اليها ، هى التى أبان عنها كل الابانة فى دفاعه عن نفسه أمام قضاته قبل الفتوى بادانته . وعندى أن محاورات سقراط ، أول ما وضع فى تاريخ الآداب الانسانية من نقد قائم على المذهب التقريرى

ولقد ترى أثر هذا الرأى — رأى أننا ننقد على المذهب التقديرى لا على المذهب التقريرى — ظاهراً جلياً فى كل نواحى النقد ، لا فى النقد الأدبى وحده . فان نزعتنا هذه قد تجلت بينة فى النقد السياسى على الأخص ، حتى لقد اتهم النقاد السياسيون فى مراميهم وأوذوا فى سمعتهم السياسية ، لا لشىء إلا لأنهم نقدوا على غير مذهب ، وكتبوا على غير نظرية سياسية ، ومضوا يتكلمون فى السياسة وليس أمامهم غاية عامة نهائية يرمون إليها ، اللهم إلا أن تستقر الأحوال على صورة تقر ما كان قائماً قبل انقلاب حدث ولو كان ما يطلب الرجوع إليه من نظام فيه من أوجه النقد ما لا يقل قيمة أو أثراً عما يراد إدالته من نظام قائم

على أن ما ترى فى النقد السياسى من شيوعية فى المرامى واستهتارية فى الغايات ، قد تراه بذاته فى أكثر النقود الأدبية التى تجرى بها أقلام الذين يتصدون للنقد فى هذا العصر . وما السبب فى هذا إلا أننا نزعنا فى النقد النزعة التقديرية ، فأوسعنا المجال للخيال دون العقل ، وفتحنا الباب على مصراعيه للذوق وحده ، من غير أن نجعل للذوق ضابطاً من القيود المنطقية أو النظريات المقررة أو الحقائق الجامدة

لقد عاب الأستاذ أحمد أمين على النقاد أن ينتقدوا ما ليس من اختصاصهم ، وأن الكاتب الأدبى عندنا يرى أنه يستطيع أن ينقد فى يوم واحد كتاباً فى تاريخ نابليون ، وكتاباً عن جزيرة العرب ، وديوان شعر ! ولا مرية فى أن الأستاذ على حق فيما يقول . أما السبب فى هذه الفوضى الغامرة فالذى أذهب إليه من أن النقد عندنا قد نزع النزعة التقديرية دون النزعة التقريرية . وهل أسهل من أن أقول إن كتاباً عن نابليون ضعيف الأسلوب ، وإن كتاباً عن جزيرة العرب ثقيل الظل ، وإن ديوان شعر بارد الأنفاس ؟ ولكن غاب عن الأستاذ حقيقة أخرى هى أن الأدب والنقد عندنا ، لقلة ما لهما من ضوابط وقواعد ، قد هيآ للكتاب والنقاد سبيل الانسلاخ فى هيئات جديدة تقتضيها ظروف الأحوال . فهذا كاتب سياسى أصبح مؤرخاً . وذاك مؤرخ أصبح شاعراً . وثالث كان أديباً فأصبح سياسيا ، ثم ارتد ناقداً ، ثم انسلخ فى صورة ديماجوج ، يضرب على نغمات تحبها آذان الجماهير . ورابع كان صحفياً فأصبح مصلحاً سياسياً . وخامس كان لا شىء أصلاً فأصبح علماً يشار إليه بالبنان فى جميع ما تتخيل أن إنساناً يستطيع أن يبرز فيه من علم وفلسفة وأدب وفن ، وما الله به أعلم من مظاهر الكفاية . وإن واحداً صار نصير الانسانية ، وآخر أصبح سادن الدين ، وثالثاً أبا الحرية ، ورابعاً حافظ الديمقراطية ، إلى غير ذلك من الألقاب التى تذكر المرء بألقاب أهل الدول إذا ارتج أمرها وكادت تميد بها الأرض ، فيمد خيال أهلها إلى الألقاب يضخمون منها بما يخيل إليهم أن فيه المنجى والملاذ

أليست هذه ظاهرة من ظاهرات الفوضى العقلية الدالة على أن النقد عندنا إنما يقوم على نزعة تقديرية لا تزن الأثر ولا تزن الشخص ، وإنما تزن الأثر والشخص على مقتضى الظرف الحاصل ؟ ولو أننا نزعنا فى النقد النزعة التقريرية مؤمنين بعدد ثابت من الحقائق والنظريات والمثاليات ، مؤتمين بما توحى به من آداب اجتماعية عليا ، إذن لاستطعنا أن نقضى على هذه الفوضى الغامرة التى تكاد تبتلعنا لجبها

وما كان لى أن أتكلم فى موانع النقد فى بيئتنا الجديدة ، اللهم إلا أن أكون قد قذفت بنفسى فى أتون تتزع نيرانه الشوى . فليتصد للكلام فى هذا غيرى ممن لا حاجة به إلى شواء

اسماعيل مظهر